بين التصوف والحياة

للاستاذ الكبير الشيخ

عبد الباري الندوي

استاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقًا

نشر وتوزيع

مكتبة دار الفتح بدمشق

ص.ب ٤٧٥

نقـــله الى العربيـــة

محمد الرابـــع الحسني النـــدوي

★ ★ ★ ★

حقوق الطبع والنقل محفوظـة

الطبعـــة الاولى

١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م

★ ★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الاستاذ الكبير العلامة ابي الحسن على الحسني الندوي

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

اما بعد فان للمصطلحات والاسماء الشائعة بين الناس للاشياء جناية على الحقائق ، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ولغة وفي كل أدب ودين ، فانها تولّد كائنا آخر ، تنشأ عنه الشبهات ، وتشتد حوله الخصومات ، وتتكوّن فيه المذاهب ، وتستخدم لها الحجج والدلائل ، ويحمى فيها وطيس الكلام والخصام ، فلو عدلنا عن هذه المصطلحات المحدثة ، وعن هـذه الاسماء الحرفية ورجعنا الى الماضي والى الكلمات التي كان يعبر بهـا الناس عن هذه الحقائق في سهولة وبساطة ، والى ما كان ينطق به رجال العهد الاول والسلف الاقدمون ، انحلّت العقدة ، وهان الخطب واصطلح الناس .

ومن هذه المصطلحات والاسماء العرفية التي شاعت بين الناس « التصوف » ومن هنا ثارت أسئلة وبحوث وتساءل الناس ما مدلول الكلمة وما مأخذها ، هل هو من الصوف او من الصفاء أو من الصفو أو من الصفة ؟ أو هي مأخوذة من الكلمة اليونانية (صوفيا) معناها « الحكمة »[1] ؟

ومتى حدثت هذه الكلمة ؟ ولم نعرف لها أثرا في الكتاب والسنة وما جاءت في كلام الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم باحسان وما عرفت في خيرالقرون ، وكل ما كان هذا شأنه ، فانه من البدع المحدثة ، وحميت المعركة بين أصدقائه وخصومه والموافقين والمعارضين حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة يصعب استعراضها .

اما اذا عدلنا عن هذا المصطلح الذي نشأ وشاع في القرن الثاني[1] ورجعنا الى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين وتأملنا في القرآن والحديث ، وجدنا القرآن ينوّه بشعبة من شعب الدين ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ «التزكية» ويذكرها كركن من الاركان الاربعة التي بعث الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها « هُوَ الذي بَعَثَ في الأمِّيين رَسولاً منهم يتلو عَلَيْهِمْ آياته ويُزَكّيهِمْ

---

(١) كلها أقوال قيلت في معنى التصوف واشتقاقه راجع دائرة المعارف للبستاني وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان .

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٨٠ نقلا عن الامام القشيري

ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمَةَ وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ[1] » وهي تَزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل ، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم واخلاصهم واخلاقهم والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي الذي ليس له نظير في التاريخ وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم .

ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة هي فوق درجة الاسلام والايمان ويعبِّر عنها بلفظ « الإحسان » ومعناها كيفية من اليقين والاستحضار يجب ان يعمل لها العاملون ، ويتنافس فيها المتنافسون ، فَيُسْأل الرسول صلى الله عليه وسلم ما الاحسان ؟ فيقول « أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراه فإن لم تَكُنْ تراه فإنَّهُ يَراكَ[2] .

ووجدنا الشريعة وما أُثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الاقوال والاحوال وَدوِّن في الكتب ينقسم بين قسمين ، أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح ، وأدعية وأذكار ، وأحكام ومناسك قد تكفَّل بها الحديث رواية وتدوينا ، والفقه استخراجا واستنباطا وقام بها المحدثون والفقهاء ــ جزاهم الله عن الأمة ــ فحفظوا للامة دينها وسهَّلوا لها العمل به .

---

(١) الجمعة /٢/ ، (٢) حديث متفق عليه .

وقسم آخر هو كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الافعال والهيئات عند الأداء وتلازم الرسول صلى الله عليه وسلم قياما وقعودا وركوعا وسجودا ، وداعيا وذاكرا ، وآمرا وناهيا ، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد ، وهو الاخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد وغنى القلب والايثار والسخاءوالادب والحياء والخشوع في الصلاة والتضرع والابتهال في الدعاء ، والزهد في زخارف الحياة وإيثار الآخرة على العاجلة والشوق الى لقاء الله الى غير ذلك من كيفيات باطنية واخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد والباطن من الظاهر ، وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام تجعل منها علما مستقلا ، وفقها منفردا فان سمّي العلم الذي تكفل بشرح الاول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله « فقه الظاهر » سمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول اليها « فقه الباطن » .

فكان الاجدر بنا أن نسمّي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ويدعو الى كمال الايمان والحصول على درجة الاحسان والتخلق بالاخلاق النبوية واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في صفاته الباطنية وكيفياته الايمانية كان الاجدر بنا وبالمسلمين أن يسمّوه « التزكية » أو « الاحسان » أو « فقه الباطن » ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف وزال

الشقاق ، وتصالح الفريقان اللذان فرق بينهما المصطلح وباعد بينهما الاستعمال الشائع ، فالتزكية والاحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية ، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة يقرّ بها المسلمون جميعا ، ولو ترك « المتصوفون » الالحاح على منهاج عمليّ خاص للوصول الى هذه الغاية التي تعبّر عنها بالتزكية أو الاحسان أو فقه الباطن ، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها ، وألحّوا على « الغاية » دون « الوسائل » لم يختلف في هذه القضية اثنان ، ولم ينتطح فيها عنزان وخضع الجميع وأقرّوا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الاسلام يحسن أن نعبّر عنه بالتزكية او الاحسان أو فقه الباطن ، وأقرّوا بأنه روح الشريعة ، ولُبّ لُباب الدين وحاجة الحياة ، فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الاجتماعية ، ولا لذّة ــ بالمعنى الحقيقي ــ في الحياة الفردية الا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة.

ومن هنا كانت جناية هذا المصطلح والعرف الشائع « التصوف » على هذه الحقيقة الدينية الناصعة عظيمة ، فقد حجبتها عن أنظار كثيرة ، وصدت فريقا كبيرا من الناس عن سبيلها والحرص على تحصيلها ولكن كان ذلك لاسباب تاريخية يطول ذكرها والامور تجري كثيرا على غير الاهواء والمصالح ، وليس لنا الآن ان نقرر الحقيقة ونتحرر من القيود والمصطلحات ومن النزعات والتعصبات ولا نفرّ من حقيقة دينية يقررها

الشرع ويدعو اليها الكتاب والسنة وتشتد اليها حاجة المجتمع والفرد لاجل مصطلح محدث أو اسم طارىء دخيل .

ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر وهو أنه دخل فيها دجّالون ومحترفون وباطنيون وملحدون ، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين واضلال المسلمين وافساد المجتمع ونشر الإباحية، وتزعموا هذا الفن وحملوا لواءه فكان ذلك ضغثاً على إبّالة ، وزهّد فيه ونفّر منه أهل الغيرة الدينية والمحافظين على الشريعة الاسلامية وطائفة اخرى من غير المحققين لم يعرفوا روح هذه الشعبة وغايتها ولم يميزوا بين الغاية والوسائل فخلطوا بينها، وألحوا على الوسائل أحيانا وضيّعوا الغاية أو أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفن وصلبه ، وعدّوه من الكمالات ومن الغايات المطلوبة وعقّدوا المسألة وطوّلوها ، وجعلوا الشيء الذي يُكلّف به كل مسلم والذي هو لُب الدين وحاجة الحياة الغزة وفلسفة ورهبانية لا يجرؤ عليها ولا يطمع فيها الا من نفض يده من أسباب الحياة ورفض الدنيا وما اليها ، ولا شك أن أولئك قليل من قليل في كل عصر وجيل ، وليست هذه دعوة الدين ولا أسوة الرسول ولا حكمة الخلق ، ولكن الله قيّض للمسلمين في كل عصر وجيل من ينفون عن هذا الدين « تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ويدعون الى التزكية الخالصة من شوائب العجمية والفلسفة والى « الاحسان » و « فقه الباطن » من غير تحريف ، وانتحال

وتأويل ، ويجددون هذا الطب النبوي لكل عصر وينفخون في الامة روحا جديدة من الايمان والاحسان ، ويجددون صلة القلوب بالله والاجسام بالارواح ، والمجتمع بالاخلاق ، والعلماء بالربانية ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات وفتنة المال والولد ، وزينة الحياة الدنيا وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم ووعدهم ووعيدهم ، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر والاحتساب على الملوك والامراء والاستهانة بالمظاهر والزخارف ، والقناعة باليسير فيستطيع أحدهم أن يقول — وقد طلب منه أن يقبّل يد الملك ليرضى عنه — يا مسكين والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبّل يده يا قوم أنتم في واد وأنا في واد[1] ويقول بعضهم وقد عرض عليه ملك بلاده أن يقبل شيئا مما آتاه الله من الخير الكثير (إن الله يصف هذه الدنيا بطولها وعرضها بالقلة والخسّة فيقول وقل متاع الدنيا قليل" ، وقد رزقك الله جزءا صغيرا من قطعتها الصغيرة ، فلا أرزؤك فيه[2] ويمد أحدهم رجله الى أمير جبار ، ويرسل اليه هذا الاميرصرة من الذهب فيرفضها قائلا « إن من يمد رجله لا يمد يده[3] »•

فلا شك أنه لولا هؤلاء — أصحاب النفوس المزكاة ،الذين وصلوا الى درجة الاحسان وفقه الباطن — لانهار المجتمع

---

(١) قالها الشيخ عز الدين بن عبد السلام (م ٦٦٠ هـ) .

(٢) قالها الشيخ المرزا مظهر الدهلوي أحد كبار الشيوخ النقشبندية في القرن الثاني عشر الهجري .

(٣) هو عالم دمشق الشيخ سعيد الحلبي من رجال القرن الماضي .

الاسلامي ايمانا وروحانية وابتلعت موجة « المادية » الطاغية العاتية البقية الباقية من ايمان الامة وتماسكها ، وضعفت صلة القلوب بالله والحياة بالروح ، والمجتمع بالاخلاق ، وفقد الاخلاص والاحتساب ، وانتشرت الامراض الباطنية واعتلت القلوب والنفوس وفقد الطبيب ، وتكالب الناس على حطام الدنيا ، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب ، وغلب عليهم الطمع والطموح وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة ونيابتها وهي « تزكية النفوس والدعوة الى الاحسان وفقه الباطن » .

أنظر الى بلاد ضعفت فيها الدعوة الى الله والربانية وتزكية النفوس من زمان وندر فيها وجود الدعاة الى الله وتجديد الصلة بالله واصلاح الباطن — بنفوذ الحضارة الغربية او للقرب من مركزها أو بفعل عوامل اخرى انك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحّر في العلم ولا التعمق في التفكير ، ولا فضل من ذكاء ، ولا غنى من أدب ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنة ولا نغمة من استقلال ، إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها ، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حلّ لها ، فالدهماء والشعب فريسة المادية الرعناء ونهاشة المال العمياء والامراض الاجتماعية والخلقية ، والمثقفون — الثقافة الدينية أو المدنية — فريسة الحرص على الجاه والمنصب والامراض الباطنية من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية وحب الظهور ونفاق ومداهنة

وخضوع للمادة والقوة ، والحركات الاجتماعية والسياسية تفسدها الاغراض وعدم تربية النفوس وضعف القادة ، والمؤسسات يفسدها الخلاف والشقاق وقلة الشعور بالمسئولية والتفكير الزائد في المادة وزيادة الرواتب ، والعلماء يضعف سلطانهم اهتمامهم الزائد بالمظاهر وخوفهم الزائد من الفقر وسخط الخاصة والعامة ، واعتيادهم الزائد للحياة الرخية الناعمة ، ولا علاج لكل ذلك الا في « التزكية النبوية » التي نطق بها القرآن وبعث لها الرسول ، وفي «الربانية» التي طولب بها العلماء « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

انني لا ألح على منهاج خاص من التزكية درج عليه جيل من أجيال المسلمين واشتهر في الزمن الاخير بالتصوف ـ من غير حاجة الى ذلك فقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاتهما غنى عنه ـ ولا أبرىء طائفة مسن تزعّم هذه الدعوة واضطلع بها من نقص في العلم والتفكير أو خطأ في العمل والتطبيق ولا أعتقد عصمتها فكل يخطىء ويصيب ، ولكن لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا ونسد هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة الى الله والربانية والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد ايمانها وصلتها بالله والدعوة الى اصلاح الباطن والعناية بالفرد قبل المجتمع . واقول للمتحمسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم بلسان الشاعر العربي « الحطيئة » :

أقلّـوا عليهـم لا أبـا لأبيكـمْ
من اللّوم أوسـدّوا المكانَ الذي سَدّوا

وقد كانت الهند مركزا لهذا الصنف من التزكية والدعوة والربانية لاسباب تاريخية خاصة نشرحها في الجزء الثاني من كتابنا « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » ونشطت فيها حركة الاصلاح وقويت حتى وصلت الى أقصى العالم الاسلامي في الغرب والشرق ، ووُجد فيها مجتهدون استقلوا في تفكيرهم وجدّدوا هذا الفن وسهلوه لاهل العصر ونقحوه مما التصق به من البدع والزوائد ، واستخلصوا منه خلاصة توافق نفوس أهل العصر وطبائعهم وتقرب الطريق وتيسر الوصول نذكر منهم الامام الرباني الشيخ أحمد السرهندي (م ١٠٣٤هـ) وشيخ الاسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) والسيد الامام احمد بن عرفان الشهيد (م ١٢٤٦ هـ) والعالم الرباني مولانا رشيد أحمد الكنكوهي (م ١٣٢٣هـ) .

وقد كان من خلفائهم المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي (م ١٣٦٢ هـ) الذي هو من كبار علماء هذا العصر الربانيين . وأعظم مؤلف في هذا العصر بالاطلاق[1] ومن أعظم من انتفعت بهم الهند في اصلاح العقيدة والعمل والرجوع الى

---

(١) يبلغ عدد مؤلفاته الى تسعمائة وعشرة كتب .

الله واصلاح النفس وانتفع الناس بكتبه انتفاعا لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان وقد شرح الله صدره لتيسير هذه الطريقة ــ التي كانت قد التوت وتعقدت ــ وتقريبها وتنقيح الغايات من الوسائل واللباب من القشور والزوائد وبلغ فيها درجة الإمامة والاجتهاد حتى أقرّ له كبار العلماء والشيوخ والمربّين بالتفرد في هذا الباب والتجديد لهذا الفن ، ووفقه الله عن طريق التربية والتأليف والوعظ لتجلية حقيقة التصوف واقناع الناس بأهميته والحاجة اليه وتيسره لكل فرد على حسب طبقته وأشغاله وثقافته وعقليته حتى سهل مناله ودنا جناه وأقبل عليه العلماء والزعماء والمؤلفون والموظفون وكبار المثقفين والمعلمين في الجامعات ، وممن تأثر بالحضارة الغربية والفلسفة الحديثة وتعرض للالحاد والمروق من الدين ، والعاطلون والمشتغلون ، وأهل النبوغ والذكاء وأهل الحرف والصناعات واصحاب النفوس القوية وأهل الهمم الضعيفة على السواء حتى كان للتصوف واصلاح الباطن مكانة في الطبقة المثقفة ودولة في هذا العهد المادّي .

اختار الله لعرض دعوته وفكرته ــ التي احتواها آلاف من الصفحات ــ أستاذنا الكبير الشيخ عبد الباري الندوي أحد تلاميذه الروحيين وقد كان من أجدر الناس بهذا العمل العظيم، فقد كان معلما للفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد ومؤلف كتاب « بين الدين والعقليات » المشهور وعاش في الوسط

الديني والعلمي ، وتخرج في معهد كبير ديني وصحب كبار العلماء والمؤلفين والكتاب في الهند وعاصر دور العقلية والتنور والحرية الفكرية في هذه البلاد ودرس الفلسفة الحديثة بتعمق وتوسّع ثم مارس مهنة التعليم في جامعة من أرقى جامعات الهند ودرّس طوائف من الشباب الاذكياء النابغين الفلسفة وعلوم الدين واجتاز مراحل القلق الفكري والارتيابية والسوفسطائية، وكان متصلا بالمدارس الفكرية الحديثة في أوربا ثم ساقه سائق التوفيق الى شيوخ مخلصين في مقدمتهم الشيخ أشرف علي التهانوي الذي خص الاستاذ بالثقة والعناية لذكائه وسلامة فهمه وصدق طلبه حتى حصلت له الاجازة منه ودامت الصلة بينه وازدادت توثقا وإحكاما ، ولم تزده الايام والتجارب الا اعجابا بشخصية شيخه وثقة بفهمه واجتهاده واستمر اللقاء والمراسلات حتى استأثرت بالشيخ رحمه الله (عام ١٣٦٢هـ) .

وانقطع الشيخ بعدما احيل الى المعاش سنة ١٩٤٥ الى تلخيص مؤلفاته والاقتباس منها والتقاط الدرر من بحارها ونظمها في أسلوب كتابي عصري وعنى بعرض فكرته كفكرة جامعة وصورة كاملة في مؤلفاته ، ومن أنفع هذه المؤلفات هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته بالعربية واسمه « تجديد التصوف والسلوك » أسميناه بالعربية « بين التصوف والحياة » وهو كتاب يثبت في قوة ووضوح وأسلوب علمي أن الذي اعتاد المتأخرون أن يسموه بالتصوف ، هو لب الاسلام وكمال

الايمان ، وانه لا يمكن لرجل ما أن ينال بركات الاسلام وثمراته الدينية والدنيوية والفردية والاجتماعية والقومية والسياسية بدون ان يتحقق بهذا الكيف و يعني باصلاح نفسه ــ قبل غيره ــ وتزكيتها وتطهيرها بصفة الاحسان وفقه الباطن .

وقد نقل هذا الكتاب القيم الاستاذ محمد الرابع ابن رشيد الحسني الندوي أستاذ دار العلوم ندوة العلماء وبذل فيه جهده ومقدارا كبيرا من وقته لان التصوف قد أصبحت له لغة خاصة وتعبيرات خاصة في الهند يصعب نقلها والتعبير عنها في اللغة العربية على شدة اشتغاله بالدروس والاشراف على قسم الادب العربي في دار العلوم ونشاطها الأدبي والصحافي .

وللمؤلف شكر القراء والمنتفعين بهذه العلوم الصحيحة النافعة واعجابهم ، وللمترجم تقديرهم واعترافهم ولكل من له نصيب في هذا العمل دعاؤهم .

في ٤ ربيع الاول ١٣٨٠ هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الشيخ أشرف علي التهانوي

ولد الشيخ الكبير أشرف علي بن عبد الحق العمري في « تَهانَه بَهَوَنْ » بلدة من البلدان الغربية لايالة « اترابراديش » في الهند على بعد خمسين ميلا من دهلي على وجه التقدير ونشأ فيها فلقب بالتهانوي وتلقى التعليم الابتدائي في بلدته ثم انتقل الى المعهد الديني المشهور دار العلوم الديوبندية واقام فيها خمس سنين أكمل فيها دراسته وتخرج وهو ابن عشرين سنة وكان ذلك في ١٣٠١ هجرية واتصل بالمصلح الصوفي الكبير الشيخ الحاج امداد الله والعالم الرباني الجليل الشيخ رشيد احمد الجنجوهي رحمهما الله تعالى وبايع اولهما وافاد منه حكمة عظيمة وعلما جما وتدرج في مدارج الكمال حتى أصبح علما كبيرا من اعلام المصلحين للامة الاسلامية في شبه القارة الهندية واستفاد منه الوف من المسلمين وكان له فضل كبير في نشر العقيدة الصحيحة واصلاح الاعمال والاخلاق ومحاربة العوائد والبدع التي تسربت في المسلمين عن طريق المواطنين وتخرج على مدرسته الصوفية زهاء مائة واربعين مسترشدا من أشهرهم العلامة السيد سليمان الندوي ومولانا

شبير احمد العثماني من كبار مؤسسي باكستان والمفتي محمد حسن الامرتسري مؤسس الجامعة الاشرفية في لاهور ومولانا خير محمد الجاليدهري مؤسس مدرسة خير المدارس كبرى المدارس الدينية في باكستان ومولانا ظفر أحمد التهانوي من كبار علماء باكستان ومولانا وصي الله المربي الكبير في الهند ومولانا عبد الباري الندوي من كبار الاساتذة والمفكرين ومؤلف هذا الكتاب وغيره من كتب قيمة .

اشتغل الشيخ التهانوي بعد تخرجه من المعهد الديوبندي بالتدريس في مدرسة قيض عام بمدينة كانيور لمدة اربع عشرة سنة ثم قطع صلته عن التدريس واعتكف في بلدته يربي النفوس الراغبة الى تطهير الباطن وتزكية القلب كما اشتغل بالعلم الديني يؤلف ويفيد حتى بلغ عدد ما ألفه طول حياته اكثر من تسعمائة مؤلف بين صغير وكبير ، توفي رحمه الله في سنة ١٣٦٢ هجرية .

★ ★ ★ ★

بين التصوف والحياة

تناقض

إن من غرائب الامور ان يعتقد كثير من الناس أن التصوف هو الكمال في الدين والدرجة التي تدعى بدرجة الاحسان وهي أعظم درجة من درجات الاسلام والايمان ، وتجد كثيرا من الناس يعتقدون أن المنزلة التي تحصل للمتصوفين والاولياء عند الله من حيث التقرب والدنو اليه لا تحصل لغيرهم حتى لكبار الفقهاء والمحدّثين الذين يحملون العلوم الشرعية الظاهرة .

ان هؤلاء الصوفية واولياء الله ليحملون في جميع أعمال حياتهم وأفعالها وحركاتها وسكناتها صلة إلهية خاصة يكونون معها كأنهم في المشاهدة الإلهية والحضور في كل زمان ، وكأنهم متمتعون بلون ما من الوان المكالمة والمناجاة مع الله ، فبذلك لا يرون أحدا أعلى منزلة من الصوفية غير الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم ، وهذا الاعتقاد عن الاولياء الصوفية ليس خاصا بعامة الناس فحسب ، بل أن الخاصة من الناس والمحققين منهم أيضا يسلّمونه ويعترفون به .

وفي جانب آخر نجد شبهات كبيرة وأفهاما خاطئة تسربت الى الناس عن طريق التصوف لا نحسب أن مثلها عمت وانتشرت عن طريق نحلة من النحل الاسلامية وعلم من العلوم الاسلامية حتى أننا قلما نجد صورة من صور الكفر والشرك لم يعدها بعض الناس من صميم التصوف او من التصوف بعينه ولذلك نجد أن كثيرا من الشخصيات الاسلامية الكبرى أنكرت التصوف ولغت عليه برمته او حسبته الضلالة بعينها •

سر هذا التناقض

والسر في هذا التناقض أن منشأ الكمال في شيء انما هو في باطنه أكثر مما يكون في ظاهره ، وفي قوته اكثر من مقداره وفي لبه أكثر من قشره ، وفي روحه اكثر من جسمه ، وفي مغزاه أكثر من شكله ، وكلما كان الشيء أعرق في الباطن والغموض كان أشد تعرضا للشبهات والضلالات وتطرقت اليه الاوهام ونسجت حوله الاساطير، ومما لا شك فيه ان الشبهات والضلالات التي عدت من صميم الدين وكمالاته صعب اقتلاع جرثومتها واستئصال جذورها ، فلذلك نرى أن الضلالات التي دخلت في الاسلام عن طريق التصوف حتى ما يبلغ منها درجة الاشراك بالله والالحاد في الدين قد تغلغلت في حياة المسلمين واصبحوا يعدونها من صميم الدين وأصله : حتى أنه لم يعد من الامكان ازالتها واستئصالها الا بجهد وعسر •

لقد وقع العامة وعدد كبير من الخاصة نحو التصوف في

شبهات عظيمة فمنهم من يعد التصوف كشوفا وكرامات وتصرفات ، ومنهم من ينظر الى الاشغال الروحية والمراقبات والاحوال والكيوف الباطنية هو التصوف بعينه ، ويؤمن بذلك، ومنهم من لا يعد التصوف الا تقاليد وعادات خاصة ، ومنهم من يراه رياضات ومجاهدات وزهادة في العلاقات الاجتماعية ومنهم من يعد التصوف الفلسفي أو التصوف المصطبغ بالصبغة الفلسفية من أفكار وحدة الوجود ووحدة الشهود ونظرياتهما هو التصوف الحق ومنهم من يرى التصوف مجموعة من الاسرار والمَغيبَّات ، وقد بلغ الامر في ذلك الى أن سماه رجال الغرب باسم « السرّية » وكثير من المسلمين أيضا جعلوه سرا أو رمزا متنقلا من صدر الى صدر ، أما الذين رأوا التصوف والطريقة والحقيقة والمعرفة ضدا للشريعة فأولئك هم الذين وقعوا في ضلالة أشد وخطأ أطم .

تنقيح التصوف من الاوهام والزوائد

وقد وفق الله المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي بالتمحيص في هذا الباب ، ونقح مثل هذه الاخطاء المختلفة ، فكان عمله ذلك عملا تجديديا في باب التصوف ولم يقتصر ـ رحمه الله ـ على هذا الجانب السلبي بل أضاف الى ذلك الجانب الايجابي وهو أنه وفق الى عرض التصوف عرضا صحيحا اسلاميا حتى تحقق ان التصوف ليس الا تعبيرا للشريعة الاسلامية وتفسيرا لها ، لم يؤد الشيخ هذا العمل التجديدي